

باب المعاشي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك

(باب) المعاشي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك. لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- { إنك امرؤ فيك جاهلية } وقول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَسْأَءُ }. حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا شعبة عن واصل عن المعمور قال: لقيت أبي ذر بالربردة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إنني سايبت رجلاً غيرته بأمه، فقال لي النبي -صلى الله عليه وسلم- { يَا أَبَا ذِرٍ أَعِيرْتَهُ بِأَمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤَ فِيكَ جَاهِلِيَّةً، إِخْوَانَكَ خُولَمَ جَعَلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَخْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلَيْطَعْمَهُ مَا يَأْكُلُ وَلِيَلِسَهُ مَا يَلِسُ، وَلَا تَكْلِفُهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنَّ كَلْفَتَهُمْ فَأَعْنَوْهُمْ }. هكذا جعل هذا من خصال الجاهلية، ولا شك أن كل ما أضيف إلى الجاهلية فإنه جهالة، وأنه من خصال الجهل، والجاهلية ما قبل الإسلام، سموا بذلك لأن أعمالهم صدرت عن جهل أو لكثره جهلهم، والجهل خصلة مذمومة ينفر منها كل أحد، لو قلت له: أنت جاهل. لنفر وقال: أنت أجهل مني أو نحو ذلك. ومع ذلك فإن الكثير يتصرفون بصفات جاهلية. انكر الله تعالى في القرآن كثيراً من صفات الجاهلية، فقال تعالى: { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ حَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةِ } أي أن هذه الحمية والتعصب للأقارب ونحوهم ولو كانوا خاطئين هذا من حمية الجاهلية، وكذلك قال تعالى: { وَلَا تَبَرُّجَنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَوَّلِيِّ } التبرج إبداء النساء الزينة، فجعل هذا أيضاً من خصال الجاهلية، وقال تعالى: { أَفَكُمْ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ } يعني: الحكم بالعادات حكم الجاهلية، وكل هذا يدل على أن أمر الجاهلية مذموم. ففي هذا أن المعمور لقي أبي ذر جندي بن جنادة الغفاري -رضي الله عنه- ومعه مملوك له غلام مملوك، وإذا هو قد ليس حلة وأليس غلامه حلة مثلها: الحلة للباس الكامل للباس الجميل، فتعجب وقال: كيف تسويه بنفسك مع أنه مملوك، فأخبره بما فعل في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أنه سب رجلاً أو حصلت مسايحة بينه وبينه فكان منه أن عيره بأمه، غير ذلك الرجل وكانت أمه يعني: مملوكة. قال له: يا ابن السوداء. كانت أمه سوداء، فعند ذلك انكر عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره بأن هذه فعلة جاهلية، وأنه لا يزال فيه أمر أو خصلة من خصال الجاهلية فقال: { إِنَّكَ امْرُؤَ فِي جَاهِلِيَّةً }. دلنا هذا على أن خصال الجاهلية تنافي خصال الإيمان، ولدنا هذا على أن الإنفاق من الإيمان، والإيمان فرع من الإسلام أو معتقد المسلمين. لما عيره قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- { هُمْ إِخْوَانَكَ خُولَمَ } إخوانكم يعني: هؤلاء المالكين بشر مثلكم إنسان مثلك { جَعَلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَيْدِيكُمْ } أي: أنه سخرهم لكم فصاروا مماليك لكم يخدمونكم ويتبعون في خدمتكم، ويبقى أحدهم ذليلاً لسيده، ويبقى خادماً له مجاناً بمطعمه وكسوته. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- { هُمْ إِخْوَانَكَ خُولَمَ } يعني: خدمكم { جَعَلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَيْدِيكُمْ فَمِنْ كَانَ أَخْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلَيْطَعْمَهُ مَا يَطْعَمُ وَلِيَلِسَهُ مَا يَلِسُ ما يغلبهم فأعنوهم }. فهكذا أخبر بأنهم إخوانكم في الإنسانية إذا لم يكونوا مسلمين، أو في الإنسانية والإسلام إذا كانوا قد أسلموا فهم إخوانكم وهم خدمكم يخدمونكم بالكره يعني: ولو كانوا غير مقتنيين؛ وذلك لأن الله قد ملككم رقبهم { إِخْوَانَكَ خُولَمَ جَعَلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَيْدِيكُمْ } أي: سخرهم لكم وذللهم تحت أيديكم. { فَمِنْ كَانَ أَخْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلَيْطَعْمَهُ مَا يَطْعَمُ } يعني: يطعمه من طعامه الذي عنده والذي يأكله، ولهذا كان أبو ذر إذا قدم إليه طعامه دعا بالخادم وأمره بأن يأكل معه، سيما إذا كان الطعام قد أصلاحه ذلك الخادم. { وَلِيَلِسَهُ مَا يَلِسُ } وهذا أبو ذر سوى بيته وبين غلامه فالبسه حلة كاملة كما أنه ليس منها، فهذا دليل أو الشاهد منه أن خصال الجاهلية من خصال الكفر.